

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

الدرس : 4 - سورة القلم - تفسير الآيات 42 - 45 ، المسارعة إلى التوبة

06-01-1998

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

الآية الثانية والأربعون من سورة القلم وهي قوله تعالى:

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (42) ﴾

[القلم: الآية 42]

فالجنة ثمنها يُدفع في الدنيا، الإنسان لا يستطيع تلافى الأمر ؛ قال تعالى:

﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (13) ﴾

[الحديد: الآية 13]

ارجعوا إلى الدنيا حينما يدخل المؤمنون الجنة ؛ قال تعالى عنهم:

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ

الْعَامِلِينَ(74)﴾

[الزمر: الآية 74]

فهذا العطاء الكبير ؛ الجنة يُدفع ثمنه في الدنيا، فالذي عرف الله واستنقاه على أمره يدخل الجنة، لذلك هذا اليوم العصيب ؛ كلمة: يُكشَفُ عن ساقٍ تعبير عربي قديم بِمَعْنَى أَنَّهُ يَوجَدُ شَيْءٌ صَعْبٌ وَيَوْمٌ عَسِيرٌ يَوْمٌ يُكْشَفُ عن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إلى السجود فلا يستطيعون لأنه أمضى حياته الدنيا في ما لا يُرضي الله، هناك حجابٌ بينه وبين الله ؛ خاشعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرَاهُمْ ذَلَّةً فاعماله السيئة ومعاصيه وانجرافه في الحياة الدنيا كانت حجاباً كثيفاً بينه وبين الله؛ وقد كانوا يُدعون إلى السجود وهم سالمون قبل مجيئهم إلى الآخرة وقبل استحقاقهم النار، يوم كانوا في الحياة الدنيا كانوا سالمين وكانوا في صحّةٍ وعافيةٍ ومالٍ وقُوّةٍ ودُعوا إلى الله فأبوا فالآن الطريق مسدود لأنّ الإنسان إذا مات على الكُفْرِ أو المَعْصِيَةِ والانجراف ودُعِيَ فلم يستجب ؛ من الصعب جداً أن يتنافى الأمر بعد الموت، فالحياة فُرصةٌ وما دام قلبه يُنبض فهو في بحبوحة التوبة وما دام عُمره بَيَّوْتَةً وفي بحبوحة الصلح مع الله ؛ أما حينما يموت على حالٍ لا يُرضي الله تلافى الأمر أصبح صعباً جداً، ذكرت في المسجد صباحاً أنّ أخاً من إخواننا له والد أصيب بمرضٍ

عُضال جعله في الفراش مشلول الحركة، فجاءه صهره زوج ابنته ونظر إلى عمه في الفراش غائياً عن الوعي فقال: والله هذه النومة صعبة في اليوم التالي تُوفي ؛ مبادرة سريعة جداً ؛ وكانوا يُدعون إلى السجود وهم سالمون.

إخواننا الكرام، الإنسان حينما يُدرك أنه بضعة أيام وكلما انقضى يومٌ انقضى يوم منه يُدقق كثيراً في إنفاق الوقت، الوقت أثنى من المال ؛ لأنك قد تتبع بينك الذي تسكنه وليس لك مأوى سواه من أجل إجراء عملية تتوهم أنها تمّدت في عمرك فالذي يبذد المال يُعدّ سفيهاً والذي يبذد الوقت يُعدّ أشدّ سفاهةً، فلو أنّ شخصاً أمسك خمسين ألف ليرة سورية وأحرقها بلا سبب ألا تشعر أنه مجنون وسفيه فهذا الذي يُحرق خمسين ألف لا تتشكك أنه مجنون فكيف الذي يُمضي الليالي والسهرات والأشهر والسنوات في سفاسف الأمور وفي المعاصي التي لا تُرضي الله عز وجل والمشكلة أنّ بعد الموت الأمور لا تُصحح وصعبة جداً قال تعالى:

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46) ﴾

[غافر: الآية 46]

فالقبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفرة النار، والإنسان الذي لا يخاف مجنون، نكرت لكم عدّة مرات أنّ طالباً منحرفاً توجيه ديني قال لي كلمة لما كنت أوجه الطلاب توجيهاً دينياً، أنا: لا أخاف الله فقلت له: لك الحق أن لا تخافه، فقال لي: لماذا ؟ فقلت له يا ابني، إنّ الفلاح يأخذ ابنه وعمره سنتين إلى الحصيد يضعه بين القمح لو مرّ بجانب هذا الطفل ثعبان طوله خمسة أمتار فإنّ هذا الطفل لن يخاف وبالعكس سيضع يده عليه؛ لأنّه إذا انعدم الإدراك انعدم الخوف، الخوف يأتي من الإدراك أما الذي لا يُدرك لا يخاف فكلّ إنسان لا يخاف من الله عطّل عقله وألغاه ؛ هذا الذي يعيش لحظته إذ أنّ أكثر الناس تجده يأكل ويشرب لكنه لا يدقق إنّ كان هذا الأكل وهذا الدخّل حلالاً أم حراماً، وهذه الجلسة هل تجوز أم لا تجوز؟! وهل هذه العلاقة صحيحة أم غير صحيحة ؟ يعيش لحظته، كئله شهوات تتحرك نحو إزواء هذه الشهوات، فالإنسان إذا عطّل فكره وعاش وجوده الحيواني ثم جاءه ملك الموت لم يجد الحلّ أمامه والآية تدلّ على هذا: "يوم يُكشف عن ساقٍ.." في هذا اليوم العصيب وهذا اليوم العسير ؛ فحال هؤلاء كما قال الله عز وجل:

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (27) ﴾

[الإنسان: الآية 27]

فالإنسان إذا ضُبط بخيانة عظيمة لوطنه ثم أُلقي القبض عليه ماذا ينتظره ؟ الإعدام، أليس كذلك ؟ إذا ضُبط بخيانة وطنه أو خيانة أمّته وهناك أدلة ؛ سيُساق إلى السجّن وإلى المحكمة ويهان ويُشتم ثم يُساق إلى حبل المشنقة، هذا يوم عسير، قال الله عز وجل:

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ (27)

[الإنسان: الآية 27]

فإذا مات الإنسان وكان عديم الاتصال بالله كان الأمر على أشدّ قال تعالى:

﴿ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ (42)

[القلم: الآية 42]

نحن الآن نطبق علينا الكلمات الأخيرة في الآية ؛ نحن الآن سالمون ونحن الآن أحياء، ونحن الآن في الحياة الدنيا، ونحن الآن نستمتع إلى الحق، وفي عُمرنا بقيّة ومعنا بحبوحة فإذا سجّدنا الآن ؛ هذا السُّجُود يُنفعنا يوم القيامة لذلك مرّ النبي عليه الصلاة والسلام بقبر فقال عليه الصلاة والسلام: إِنَّ رُكْعَتَيْنِ مِمَّا تَحْقِرُونَ مِنْ تَنَفُّلِكُمْ أَنْفَعُ لَهُ مِنْ كُلِّ دُنْيَاكُمْ، ففي المحلات يقول لك: متراً بمليون وهذه القصور، والمركبات، والشركات الكبرى، والنساء الجميلات، والبيوت الجميلة، والأرباح الطائلة ؛ إِنَّ رُكْعَتَيْنِ مِمَّا تَحْقِرُونَ مِنْ تَنَفُّلِكُمْ أَنْفَعُ لَهُ مِنْ كُلِّ دُنْيَاكُمْ، قال تعالى:

﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾ (43)

[القلم: الآية 43]

دُعوا إلى السجود فلم يستجيبوا، لذلك يقول الكافر كما قال تعالى:

﴿ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (23) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا (25) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدًا ﴾

[الفجر: الآية 23-25]

وقال تعالى:

﴿ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ (27)

[الفرقان: الآية 27]

فالإنسان حينما يرى مكانه في النار يندم أشدّ الندم لذلك يتألم ويقول: يا لَيْتَنِي فَعَلْتُ كَذَا وكذا قال تعالى:
﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (100)

[المؤمنون: الآية 99-100]

أردت من هاتين الكلمتين أن لا نصل إلى الله من طريق مسدود ؛ مات على معصية، أناس كثيرون كثيرين ؛ مطعم يبيع الخمر أفنعه أصحابه إلى درجة أنه تاب ومنع بيع الخمر ثم وجد أن الدحل قليل وعاد عما كان عليه وبعد عشرة أيام مات على معصية بيع الخمر، وهذا يموت وما صلى لله أبداً وذاك

يموت وماله حرام وكسبه حرام وبنائه لسن على ما لا يرضي الله عز وجل، يموت وماله غير مشروع، فهذه هي النقطة الدقيقة وهي قوله تعالى:

﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (43) ﴾

[القلم: الآية 43]

فَنَحْنُ الآن نُدْعَى إِلَى السُّجُودِ وَإِلَى صَلَاةٍ صَحِيحَةٍ، وَأَسَاسُهَا اسْتِقَامَةٌ صَحِيحَةٌ، وَإِلَى عِبَادَةٍ صَحِيحَةٍ، وَإِلَى ذِكْرِ صَحِيحٍ قَالَ تَعَالَى

﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (43) فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ
بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (45) ﴾

[القلم: الآية 43-45]

المتين صفة، فهي صفة للحبل مثلاً تقول: حبلٌ فلان يفاوض قوى الشد والقساوة تقاوم قوى الضغط فالشيء الذي يقوم قوى الضغط اسمه قاسي فأقصى شيء بالأرض الألماس وميناء الأسنان بعد الألماس، وأمتن شيء في الأرض الفولاذ المصنور لذلك المصاعد والمركبات المعلقة من الفولاذ المصنور، فقوله تعالى: " إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ " كَأَنَّ كَيْدَ اللَّهِ حَبْلٌ مَتِينٌ، فَهُوَ مُرْخِي وَالْإِنْسَانَ طَلِيقٌ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ وَيَكْفُرُ أحياناً وَيَرْتَكِبُ الْمَعَاصِي وَالْإِثْمَ، وَيَتَحَدَى وَيَتَغَطَّرِسُ وَيَسْتَعْلِي عَلَى النَّاسِ كَمَا تَسْمَعُونَ فِي الْأَخْبَارِ اسْتِغْلَاءً وَغَطَّرِسَةً وَإِنْجِرَافٌ وَفُجُورٌ وَزَنَا وَشُرْبٌ فَكُلُّ هَذَا ثُمَّ يَنْظُرُ أَنَّهُ هُوَ إِلَهَ الْأَرْضِ وَأَنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ لِأَنَّ مَعَهُ أَسْلِحَةً فَتَأْكُلُهُ وَنَسِيَّ أَنْ كَيْدَ اللَّهِ مَتِينٌ، مَا مَعْنَى أَنْ كَيْدَ اللَّهِ مَتِينٌ ؟ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ يُشَدُّ الْحَبْلُ فَإِذَا هُوَ فِي قَبْضَةِ اللَّهِ وَيَصِيحُ كَالْكِلَابِ ؛ هَذَا هُوَ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ فَإِلَى الْإِنْسَانِ مُرْبُوطٌ بِحَبْلِ وَلَكِنَّ الْحَبْلَ مُرْخِيٌّ فَلِأَنَّهُ مُرْخِيٌّ يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ لَا حَبْلَ ! أَمَا مِنْ فَوْقِ..، وَمَهْمَا حَاوَلَ لَا يَنْقَطِعُ هَذَا الْحَبْلُ وَمَهْمَا كَانَ قَوِيًّا وَمَتَمَكِّنًا وَمُعْطِيًّا لِكُلِّ الْإِحْتِمَالَاتِ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ، قَالَ تَعَالَى:

﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا (16) فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُوَيْدًا (17) ﴾

[الطارق: الآية 15-17]

فَالْإِنْسَانُ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ يَقَعُ فِي قَبْضَةِ إِلَهٍ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ هُوَ الذَّكِيُّ ؟ الَّذِي يَنْظُرُ إِلَى هَذَا الْحَبْلِ الْمُرْخِيِّ ؛ يَعْلَمُ أَنَّهُ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ وَفِي عِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ كُلُّهَا مُسَجَّلَةٌ عَلَيْهِ لِذَلِكَ يَسْتَقِيمُ فَإِذَا اسْتَقَامَ فَالْحَبْلُ لَا يُشَدُّ لِأَنَّهُ فِي بَحْبُوحَةِ الطَّاعَةِ، قَالَ تَعَالَى:

﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (147) ﴾

[النساء: الآية 147]

مهما كُنْتَ ذَكَاوُكُ لَا يَفْعَلُ لَكَ شَيْئاً مَعَ اللَّهِ وَيَسْتَنْدِرُكَ اللَّهُ وَيُفْلِسُكَ ثُمَّ يُبْدِي لَكَ صَفْقَةً تُصْبِحُ مِنْ وَرَائِهَا مِليونير ؛ تَنْتَهِي تَرَوْتُكَ مِنْ خِلَالِهَا وَيَسْتَنْدِرُكَ فِي سَفَرٍ تَقُولُ فِيهِ أَنْتَ: سَأَجْمَعُ فِيهِ أَمْوَالَ قَارُونَ فَإِذَا بِكَ تُفْلِسُ أَشَدَّ الْفَلْسِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَسْتَنْدِرَكَ إِلَى وَضْعٍ وَتَتَحَكَّمُ عَلَيْهَا سِنُونَ طَوِيلَةً وَأَنْتَ بَرِيءٌ ؛ سَنَسْتَنْدِرُجُهُمْ مَعَ اللَّهِ لَا يَوْجِدُ ذَكِيًّا، لَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ مَهْمَا كُنْتَ ذَكِيًّا ذَكَاوُكُ عِنْدَ اللَّهِ لَيْسَ لَهُ قِيَمَةٌ إِطْلَاقاً ؛ يُمْكِنُ أَنْ تَخْسِرَ مَالَكَ وَمَنْصِبَكَ وَمَكَانَتَكَ وَأَهْلَكَ وَأَوْلَادَكَ:

﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَدِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَنْدِرُجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي

مَتِينٌ (45)﴾

[القلم: الآية 44-45]